

الحضارة القفصية:

أولاً: سبب التسمية:

تعتبر الحضارة القفصية إحدى الحضارات التي تميزت بها منطقة شمال إفريقيا خلال العصر الحجري المتأخر، وتنسب لموقعها النموذجي قفصة بجنوب غرب تونس، حيث اكتشفت أولى أدواتها القرمزية الحجرية سنة 1909 وبالتحديد في موقع المكتة من طرف دي مورجان (De Morgane)، لكن في البداية اعتقد بعض المختصين أن الصناعة القفصية شبيهة بالصناعات العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا كالصناعات الأورغانسية والبريغودية، ولهذا رفض بعضهم اعتبارها صناعة جديدة وطالبوا بالتخلي عن التسمية الجديدة (القفصية)، وبعد القيام بأبحاث وتقنيات جديدة عثر على أدوات قرمزية فرأى كل من الباحثين جوبير (G.Gobert) وفوفري (R.Vaufrey) بتأكيد التسمية ونشرها في الأوساط العلمية كحضارة تتميز بها الجنوب الغربي التونسي والشرق الجزائري، كما أنها حضارة داخلية، لم تصل مظاهرها إلى السواحل.

ثانياً: الانتشار والامتداد الجغرافي:

تشير التحاليل التي أجريت على أكثر من ثمانين عينة مستخرجة من مستوطنات أثرية قفصية باستعمال الكربون المشع (C14) أن هذه الحضارة قد ظهرت بعد الحضارة الوهرانية لكن في نفس العصر أي العصر الحجري القديم المتأخر، ولم تستغرق إلا فترة زمنية قصيرة مقارنة بحضارات أخرى، وتعود أولى أدواتها للألف الثامنة قبل الميلاد إلى غاية الألف الخامسة قبل الميلاد، وهذا يعني أنها دامت حوالي ثلاثة آلاف سنة أو يزيد قليلاً، ومن أهم مواقع في تونس نذكر: موقع المقطع النموذجي والقريب من ومدينة قفصة والقصرين وسيدي بوزيد والرديف وfriانة وأم العرائس والقطار وعين متهرشم وعين سندس وبئر حمائية وبئر أم علي. ومن أهم المواقع الجزائرية: موقع الجبابة وقلعة المحاد وعين الذكارة وارفانة بتبسة، المجاز 2 وبوشريط بسطيف وكدية كيفان لحظة بعين مليلة وكلومناطة وكيدا بتيارت وواد بوسعادة وحاسي المويلح وعين الناقة قرب مسعد، ويلاحظ من خلال هذه المواقع تركزها في وسط غربي تونس وشرق الجزائر حتى تيارت، كما توغلت لمنطقة شمال الصحراء ويتضح ذلك في مجموعة من المواقع في توقورت ووادي سوف تؤرخ بحوالي 6650 ق.م، وموقع الحجار بورقلة ويؤرخ بحوالي 5350 ق.م

ثالثا: جغرافية الحضارة القفصية:

عاش القفصيون في السهول السهبية في المناطق التلية والصحراوية البعيدة عن السواحل، وكانت أكثر رطوبة وبرودة وهذا ما تؤكد به بقايا الأشجار التي حددها علماء النبات القديم والمتمثلة في شجر المران والدردار والصفصاف والأرز والبلوط والصنوبر الحلبي والصنوبر الأخضر، وكان يسكنون في الهواء الطلق، وهذا لا يعني عدم التجائهم للكهوف والمغارات خلال البرد، كما كانوا يقيمون مساكنهم بالقرب من من السبخات والوديان، حيث تكثر الطرائد كالبقرات الكبيرة والصغيرة والقواضم والطيور، وكذلك الحلزونات، كما كانوا يكملون وجباتهم بأغذية النباتات البرية كالعنبيات والجذور، وقد خلف القفصيون في المناطق التي يقطنونها تلالا تعرف عند الرعاة البدو في المنطقة بالرماديات (*escargotière*)، وهي عبارة عن أكوام ذات أبعاد مختلفة وهي مكونة من رماد الموادر والفحم والصخور وبقايا عظام الحيوانات وقواقع الحلزون وأدوات حجرية وعظمية، وقد قام القفصيون في منتصف الألف السابعة قبل الحاضر بتدجين الخراف والماعز ورعي مواشيهم، فضلا عن مواصلتهم في منتصف صيد الحيوانات الأخرى، إذ يعد القفصيون أول الرعاة في تاريخ البشرية، حيث تشير بعض الدراسات أن بعض المجموعات القفصية قامت بنوع من الزراعة البدائية.

رابعا: الأدوات القفصية ومراحل تطورها:

تمثلت أغلب الأدوات القفصية في الشفرات والرؤوس ذات الظهر والمحكات والنصال المصنوعة من حجر الصوان، وتميزت هذه الأدوات بالتنوع والدقة وعموما يقسم الباحث فوفري (*Vaufrey*) الحضارة القفصية بناء على تقنية صناعة أدواتها إلى مرحلتين اثنتين هما:

أ- الحضارة النموذجية (*Capsien typique*): وتؤرخ بحوالي 6600 سنة قبل الميلاد، تتميز بمحدودية المكان بحيث انحصرت في منطقتي قفصة وتبسة، وتتميز أدواتها بالخشونة والطول وقلة التشذيب، كما تعتبر فقيرة من حيث أدواتها القزمية ذات اللمسات الهندسية، وتتكون معظم أدواتها من المحكات والنصال المضروبة الظهر، أما شفراتها فعبارة عن شظايا ونصال عريضة مزودة بحافة، لكن أدواتها القزمية فنادرة جدا، أما أدواتها العظمية فإنها قليلة وتتمثل في المخارز.

ب- القفصية العليا (*Capsien supérieur*): وقد انتشرت في مساحة أكبر من مساحة القفصية النموذجية ولفترة أطول بدأت من الألف الثامنة إلى غاية الألف الخامسة قبل الميلاد، إذ شملت الهضاب

العليا الجزائرية بسطيف وقسنطينة وسيدي بوزيد، ويبدو أنها وصل إشعاعها إلى شمال الصحراء، وتتمثل أدواتها في الصناعة القزمية ذات الأشكال الهندسية المصنوعة غالبا من الحجارة الصوانية، وكذلك في الأزاميل الدقيقة والنصال المثلثة والمستديرة وأشباه المنحرفة والشفرات، وينفرد القفصيون بصناعة بعض الأدوات من العظام البشرية، ولا نعرف على وجه التأكيد الغرض الحقيقي منها هل لاستعمالها لأغراض نفعية أم لدوافع دينية.

خامسا: المعتقدات الدينية عند القفصيين:

من أهم معتقدات القفصيين تشويه الأضراس، إذ كانت تقلع القواطع بطريقة تختلف عن سابقهم الإيبرو مغاربة، وذلك نزع القواطع عند جنس الأنثى، والتشويه يمس الفك السفلي فقط، كما كانوا يقطعون الجماجم ويستخدموها كأقنعة، أما فيما يتعلق بالدفن، فيبدو أن القفصيين قد كانوا يدفنون موتاهم مثل الإيبرو مغاربة، إذ كانت تطوى وتسند الجثة على الجنب بصفة عامة، ووجدت أحيانا عظام بشرية متفرقة من الممكن أنهم كانوا يقومون تركها مهملة للحيوانات المفترسة والكواسر وبعد زوال لحمها يعيدون جمع عظامها ودفنها، كما كانوا يصبغون الجثة بمادة المغرة لتكتسي اللون الأحمر الدال على سريان الدم وبالتالي الخلود في العالم الآخر على غرار الكثير من الشعوب القديمة.

سادسا: الفن عند القفصيين:

عرف الفن ازدهارا كبيرا خلال الحضارة القفصية ويتجلى ذلك في عدة مظاهر منها صناعة الحلبي ليتزينوا بها، إذ استغلوا بيض النعام المهشم وصنعوا منه عقودا، كما زخرفوا البيض بخطوط هندسية مائلة أو متوازنة رسوم حيوانات، كما استخدم الفنان القفصي المغرة الحمراء في طلي الوجه الداخلي للقطعة، ثم رسم الحيوان كالبقرة والماعز أو طائر، كما رسموا كذلك صور بشرية أو حيوانية أو هندسية على الجوانب الصخرية والحجارة الكبيرة، كما اهتم القفصيون بنحت تماثيل صغيرة لبشر وحيوانات، منها ثلاثون منحوتة بموقع المكتة بالقرب من قفصة أغلبها مصنوع من الكلس الناعم، فضلا عن الأقنعة البشرية ذات الدلالات الدينية.